تصوير الشرق والغرب في مقالات نعيمة

الدكتور عبد الرحمن واني *

ميخائيل نعيمة هو من "أقدر كتّاب المقالة الأدبية الخالصة"[١] فمقالاته تضم تجربات حياته الطويلة في الذاتية والموضوعية تتوزّع في كتبه المختلفة مثلا "المراحل" و"زاد المعاد" و"البيادر" و"صوت العالم" و"النور والديجور" و"الأوثان" و"في مهب الريح" و"دروب" و"أبعد من موسكو ومن واشنطن" و"مقالات متفرقة". فاق نعيمة نتاجا في فن المقالة من بقية الفنون الأدبية لأن هذا الفن كان عنده أحب الفنون إلى قلبه.[٢] وكذلك استحسنه القراء أن يأتي باطلاع على شئون حياته الخاصة. فكتب مقالاته عن حياته كما نجد في كتابه "أبعد من موسكو ومن واشنطن".

ومقالات نعيمة نقسّمها إلى قسمين: المقالة الذاتية والمقالة الموضوعية والصفة الغالبة على مقالاته هي موضوعية وهي تبدو في مقالاته التي تدور حول عقيدته في ألوهة الإنسان ووحدة الوجود والقضايا الاجتماعية الكبيرة. وعقيدة نعيمة بالروح الشرقية لم تظهر في مقالاته فحسب وإنّما غلبت على قصصه القصيرة والطويلة على السواء. والتزامه بالعقائد الشرقية يشير إلى تربيته الدينية وتأثيره بالأدب الروسي.

وثمة مقالات كثيرة يقارن فيها نعيمة بين الشرق والغرب

* الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كشمير سرينغر (الهند)

كما نلاحظ في مقالة "صنين والدولار" التي ألقاها في حفلة أقامهـا سكان بسكنتا في المدرسة تلقّى فيها دروسه الإبتدائية، إثر عودتـه من الولايات المتحدة عام ١٩٣٢م. ويستهل نعيمة مقالته وهو يحسّ نفسه في عالم جديد "يا أبناء بسكنتا يالحمي ودمي! منذ عشرين سنة أدرت وجهي إلى البحر وظهري إلى صنين واليوم صنين أمـامي والبحر ورائي. وأنا بين الاثنين كأنّي في عالم جديد. وكأنّي ولـدت ولادة ثانية".(٣)

وولوع الكاتب بمسقط رأسه وحنينه إلى أرضه وإلى حقوله وإلى جباله وإلى طيوره قد يتدفق في التعبير الشعري حيث يقـول: "ما أنا بالنبيّ يضع العجائب، غير أني منذ عدت إلـيكم والعجائـب تكتفني. فكانني في عالم مسحور انظر إلى الجبال التي كنت اتسلّقها فإذا بها تتسلّقني. وإلى الأودية التي كنت أهبط إليها وإذا بها تهـبط إلى أعماقي. وإلى البساتين والكروم والحقول التي كنت أتمشّى فيها وإذا بها تتمشّى بين جنبات ضلوعي. وكأنّ كلّ غرسة فيها غرست في داخلي. وكأنّ كلّ يد تعمل في تربتها تعمل في تربة نفسي.

أ كاد لا ألمس حجرا إلاّ تفجّرت منه سيول من الطهور والجمـال. أ كاد لا أسمع زقزقة عصفور إلا سمعت فيها أجواقا من الملائكـة ترنم بصوت واحد: (قدوس، قدوس، قدوس).....(٤)

ويتكرّر نعيمة عقيدته في الشرق كما هي تبدو فـي معظـم مقالاته ويقول "لقد كان لي عندما غادرت هذه الربوع أب واحد وأمّ واحدة واليوم وقعت عيني على أب أبصرت فيه أبا لـي. وحيثمـا التقيت أمّاً على صدرها طفل رأيتني في ذلك الطفل ورأيت في أمّه

أمّي. بقد كان لي مسكن واحد واليوم لي في كلّ بيت مـن بيـوتكم مسكن. فما أكرم ربّي الذي يسرّ لي التمتع بهذه النعمة. وما أطيبكم تحسبونني أهلا لها".[٥]

ويقول بعد هذا الافتتاح عن هجرته بأنّ الغربة هي المدرسة مؤديا إلى المعرفة كما يقول "الدرس الذي علّمتنيه الغربة هو أن لا غربة في هذا الكون على الاطلاق إلاّ غربة الإنسان عـن ربّـه. غربة الإنسان عن نفسه".[٦]

وبعد تصوير مصائب الهجرة يقول "سلامكم هـو أنفـاس العزّة القدسيّة المنبعثة من صخوركم وترابكم وأعشابكم" ويندد ريال نيويورك على طراز كما جاء في مقالته الموضوعية أيضـا فـي "توأمان الشرق والغرب" في كتابه "البيادر". فريال نيويورك نقـاب كثيف يحجب وجه الله وصنين عرش من طهارة يبدو عليه وجه الله سافرا".[٧] ويكره نعيمة مدنية نيويورك ويحبّ لبنان بما يرى فيهـا من سحر الطبيعة وجمالها "فالجمال الذي تنشره يـد الله حـواليكم بسخاء هو الطاعام والكساء والمأوى لكلّ ما هـو أزلـي وأيـدي منكم"،[٨] ويستمر قائلا:

"لا تخجلوا من العمل الذي هو بحقّ عمل. واخجلـوا فـي البطالة التي تتزيّا بزي العمل وهي بطالة ولا تتوقعـوا أن تـأتيكم السعادة في مركب من وراء البحار. فأنتم لو لاصـقت أرواحكـم أرواح جبالكم كما تلاصق أجسادكم أجسـادها لوجـدتم المسـكونة بأسرها في أحضانكم. وربّ المسكونة في قلوبكم".[٩]

نلاحظ في هذه المقالة إحساس الكاتب القوي بعظمة الشرق وإيمانه بها كما هو يبدو في أكثر كتاباته. ويبــدو كراهيتــه علــى هجرة الشرقيين إلى البلاد الغربية. وشخصية الكاتــب تبــرز فــي المقالة وكذلك هو شأن الموضوع الذي يوافق طبيعة الكاتب. ومــن ناحية أخرى أنّه يعرض تجاربه أمام القارئ كما هو يصوّر تصوير بيئته في أسلوب شعري. وفي المقالة ترابط فكري من المقدمة حتى ختامها.

ويدور معظم مقالات نعيمة حول تقابله بين الشرق والغرب كما نلاحظ في مقالة "نهضة الشرق العربي" في "المراحل". ويــرى نعيمة بأن الفرق بين الشرق والغرب هو "منحصرا في نقطة واحدة جوهرية وهي أن الشرق يستسلم لقوة أكبر منه فلا يحاربها والغرب يعتدّ بقوته ويحارب بها كلّ قوة. والشرق يرى الخليقة كاملة لأنّهــا صنع الإله الكامل. والغرب يرى فيها كثيرة من الــنقص ويســعى "لتحسينها".

والشرق يقول ((ولا غالب إلاّ الله" أمّا الغــرب فيقــول "لا غالب إلاّ أنا".(١٠) ويفتخر نعيمة بالشرق قائلا "إنّ ما أدركه الشرق منذ أجيال بإيمانه واختباراته الروحية يحــاول الغــرب اليــوم أن يتوصّل إليه بمكرسكوبه وتلسكوبه)).(١١)

وفي مقالة أخرى بعنوان "مشهدان" نلاحــظ التقابــل بــين نيويورك والشخروب كما يصوّر عصر نهار في نيويورك قائلا:

((الشمس في السماء. لكنّ من في الحديقة يشعرون بهــا ولا يرونها لأنّها مقنّعة بقناع أغبر كثيف، ليس ضبابا ولا ســحابا. إن

هو إلاّ أنفاس التنين المتصاعدة من ألوف المداخن وملايين النوافذ، وجبال متراكمة من الحديد والحجر والقير والاسفلت. وقوافل لا يدرك أولها وآخرها من العجلات. العجلات المسيرة بالغازات والمسيرة بالبخار والمسيرة بالكهرباء".[١٢]

أما السماء في الشخروب فيصفها قائلا:

((فوق رأسي سماء كيفما قلّبت طرفي لا يقع فيها على شبه غيمة. هي زرقاء. زرقاء. زرقاء! وبعيدة. بعيدة. بعيدة! أنا أعرف تلك النقطة الغبراء فيها ليست غبارا ولا دخانا. بل هي نسر أسبل جناحيه القويين وراح يدور في الفضاء دورات لولبية متصاعدة محدّقا إلى الأرض. باحثا فيها من فريسة أو طريدة يجعلها عشاء ليلته أو عشاء صغاره".[١٣]

ونلاحظ في مقال "مشهدان" تأثّر نعيمة بجبران خليل جبران في مقالته "مناجاة أرواح"[١٤] الذي يقارن فيه طلوع صباح في أمريكا ولبنان. ولكن هناك الفرق الواسع بين المقالين. فأسلوب جبران شعري وجداني أما أسلوب نعيمة فهو أدبي غلب عليه مسحة النقد والروح الصوفية فنعيمة ينتقد لكن ليس في نقده مرارة كما نشاهد عند جبران خليل جبران. يستخدم نعيمة في المقالة ألفاظا شائعة وألوفة أما جبران فيغلب على أسلوبه مسحة شعرية وتارة نجد فيه خواطر وليس فيها فكر بل ذباب فوق ذباب. أمّا نعيمة فهو رجل مسالم لا يستأذن أن يحكم عاطفته على فكره. لهذا السبب يدور فكره حول الموضوع الذي هو ميزة بارزة في مقالاته.

وكذلك مقالة أخرى بعنوان "التوأمان الشرق والغرب" في "البيادر" نلاحظ فيها بأن نعيمة مخلص لطبيعة الشرق ووراثته. هو يحاول أن ينبّه الشرق فيها إلى خصائصه الروحية والفكرية. ونقول أن المقالة خلاصة دعوته و"التوأمان الشرق والغرب" سلسلة مقالات قسمّها إلى العناوين الآتية "شرق بصير وغرب مبصر" و"شرق يقيم الأهداف وغرب يمهّد السبيل إليها" و"غرب حاكم وشرق محكوم" و"غرب يغرب وشرق يشرق". وحدّد المؤلف في المقالة حقيقة مواهب الشرق والغرب وطبيعة دوريهما في الحياة كما يقول:

"من أكمل كمالات العربيّة وأسماها تمييزها ما بين "البصيرة" و"البصر" وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة. بل توأمين من بطن واجد. ولكن ذاك الفرع غير هذا، ولكن هذا التوأم غير ذاك فكانهما واحد وليسا بواحد. فالعين تمرّ بها تحسّ ما بينهما من تجانس. ولكنها تحسّ مع التجانس تباينا. والأذن إذ تلتقطهما تستأنس في الاثنين برنّة تكاد تكون واحدة ولكنها غير واحدة. فهما أبدا متلاصقان متباعدان ومتشابهان متناقضان. أمّا التلاصق والتشابه ففي المصدر. وأمّا التناقض والتباعد ففي الطريق والواسطة".(١٥)

ونعيمة يؤمن بالشرق وببصيرته وتفضّلها على البصر في بلوغ الغاية المنشودة كما يقول:

"فالبصر. ومركزه العين. يحصر كلّ همّه في النقاط أشكال الأشياء وألوانها. ومن أشكالها يحاول أن ينفد إلى كنهها. حين أن البصيرة ومركزها وألوانها القلب أو الوجدان. همّها الوصول إلى

بواطن الأشياء دون التلهى بظواهرها. فالاثنـــان بـــدأ بـــأن وراء المعرفة يكن سبيل الواحد غير سبيل الآخر".[١٦]

والبصر هو حس خارجي أما البصيرة فهي شعور باطني. ويـــرى نعيمة بأن زبدة الشرق في بصيرته وزبدة الغرب في بصره. يقـــول نعيمة أنجب الشرق الأنبياء وأنجب الغرب العلماء "فكانـــت هديـــة الأنبياء إلى العالم أديانا ترفع الأرض إلى السماء. وكانـــت هديـــة العلماء علوما تهوي بالسماء إلى الأرض".[١٧]

ويستمر نعيمة بوصف الشرق قائلا إنّ إيمانه على الله أمّـــا الغرب فيتحوّل من حال إلى حال بسرعة خاطفة كمـــا يقـــول: "لا غرو أن يقف العالم وفي جملته هذا الشرق، مشدوها تجـــاه مدنيـــة الغرب المبصر. وأن يهلّل لها ويكبّر. وأن يغفر لها كلّ زلاتها. ثـــمّ أن يعقد عليها آمالا أبعد بكثير من مدى سلطانها. فهي على ما فيها من مرارة، غنية بالحلاوة التي لا يصعب على أيّ إنسان تـــذوّقها. لأنّها حلاوة يتذوّقها الحسّ. أما الحلاوة المدنية القائمة على البصيرة فدون تزوّقها شق النفس وقهر الجسد. لذلك كانت الأولى أقرب إلى متناول الناس وأذواقهم من الثانية".[١٨]

يعجب نعيمة بالشرق الذي أهدى إلى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخي. ويعترف نعيمة بأنّ وجود الشرق لازم للغرب ووجود الغرب حاجة للشرق. ونعيمة يرجـــو للشـــرق: "أن تكـــون وثبته القادمة وثبة تجلو الغشاوة عن بصيرته عـــن بصـــر أخيـــه الغرب. وثبة فيها القـــوّة دون الـــبطش. والمعرفـــة دون الادعـــاء

والرفعة دون الكبرياء. والقناعة دون الخنوع. والإيمان دون التعصب. والسلام دون الانتقام. والنور دون النار..."[١٩]

ويدافع نعيمة عن رأيه عندما يزعم البعض بأن أنبياء الشرق قد جنو على الشرق. وإن الشرق قد مات بالاله الحي فيجيب نعيمة على ذلك في أسلوب صوفي:

"لا – ثمّ لا – ثمّ لا – فالذي فعله الشرق حتى اليوم ما كان أكثر من وضع أهداف له وللعالم أجمع. وتلك الأهداف تتوحّد كلّها في هدف واحد. هو هدف الكمال لهذا المخلوق الذي ندعوه إنسانا. هدف الانفلات من قيود اللحم والدم. والتغلّب على الحيرة وما في الحيرة من وجع. وعلى الموت وما في الموت من ألم. والتسلط على طلاسم الوجود. ثمّ الانطلاق في حياة لا حدود لها ولا قيود فيها يسرف عليها سلام المعرفة، ويتألق في جوّها بهاء الألوهة. ويندمج في قبضتها النقيض بالنقيض. ويتلاشي في فضائها الزمان والمكان.

وهذا الهدف قد نفذ إليه الشرق ببصيرته البالغة منتهى النقاوة والصفاء في بصائر انبيائه. فهو حقيقة لا مجاز. وهو رؤية لا رؤيا. وهو واحة حية لا سراب خدّاع"[٢٠]

ويفتخر نعيمة بهدف الذي نصبه الشرق وراح يدعو إليه الناس أجمعين ويرى بأن الغرب عاجز عن خلق مثل ذلك الهدف. ويقول عن الغرب وما اكتشفه من اختراعات واكتشافات التي إذا ما بلغ حدّها فستعود حتما بالإنسان ممن المحسوس إلى غير المحسوس. أي من البصر إلى البصيرة.

على هذا الطراز كتب نعيمة هذه السلسلة من المقالات التي تتجلى فيها شرقيته، كما يؤمن بأن للشرق دوره الخالد في بناء هذه الحياة وليست طريقته أن يقلّد الغرب في وسائله. ويرى سيد قطب عندما يعلّق على كتاب "البيادر" تعبير المؤلف وأسلوبه في مستوى جيد يبلغ روعة الشعر في بعض المواضيع. ولكنك تعثر هنا وهناك على عبارات وتصورات يبدو تأثر المؤلف فيها بأسلوب الترجمة العربية السقيمة "للكتاب المقدس" وهي تحجب كثيرا من الجمال الفني في هذا الكتاب" ويستمر سيد قطب قائلا: "وهناك تلاعبات لفظية وذهنية تقلل من الأصالة الفنية والصدق الشعوري في "البيادر" في بعض الأحيان".[٢١]

وقد لاحظ سيد قطب بأن نعيمة ينظر إلى الكون وإلى مشكلات الحياة بعين الخاص هي عين الشرق، وأنه يعالجها بطريقة شرقية. ونوافق بأن تأثير الكتاب المقدّس على الكاتب جليا واضحا كما هو يبدو في جميع كتاباته خاصة في "مرداد" ولهذا نحس في تعبيره وتصويره صبغة من أسلوب الكتاب المقدّس. على كلّ حال فنجد مقالات نعيمة تجري على تصميم منظّم وتدور جميع مقالاته حول موضوع محدد. ومبعث مقالاته هو تأملاته في الحياة والناس والطبيعة. وفي المقالات التي يقارن الشرق بالغرب نلاحظ بأن في هذه المقالات يظهر إيمان نعيمة القوي بالشرق وإيمانه بأرضه وبما يتنجون منها ويبدو كراهيته ونفوره من مدنية غربية كما لاحظنا هذه الكراهية في قصصه وكتبه الأخرى.

الحواشي:

١. محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف: عباس محمود العقاد بين الصحافة والأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٤م، ص: ٢٨٢
٢. عبد الكريم الاشتر: فنون النثر المهجري، دار الفكر الحديث، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٦٥م، ص: ٤٩
٣. ميخائيل نعيمة: المجلد الخامس، دار العلم للملايين،بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م، ص: ١٣٦
٤. نفس المصدر، ص: ١٣٦-١٣٧
٥. نفس المصدر، ص: ١٣٧-١٣٨
٦. نفس المصدر، ص: ١٣٨
٧. نفس المصدر، ص: ١٤٠
٨. نفس المصدر والصفحة نفسها
٩. نفس المصدر، ص: ١٤١
١٠. نفس المصدر، ص: ٤٧
١١. نفس المصدر والصفحة نفسها
١٢. نفس المصدر، ص: ٥٤
١٣. نفس المصدر، ص: ٥٥-٥٦
١٤. راجع "دمعة وابتسامة" في المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران
١٥. ميخائيل نعيمة: المجلد الرابع، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م، ص: ٥٦٠-٥٦١
١٦. نفس المصدر، ص: ٥٦١
١٧. نفس المصدر، ص: ٥٦٢
١٨. نفس المصدر، ص: ٥٦٣-٥٦٤
١٩. نفس المصدر، ص: ٥٦٥
٢٠. نفس المصدر، ص: ٥٦٧
٢١. سيد قطب الشهيد: كتب وشخصيات، مطبعة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٤٦م، ص: ٢٢٣